MERS
MIDDLE EAST RESEARCH AND STUDIES

Source : AN_NAHAR
Date : 22_12_94
Photo No. : 166

كبيرة مهما صَغُرَت

"انتم لا تعرفون مدى رفض الشعب المصري التطبيع مع اسرائيل. انا سأعطيكم مثلا واحدا حتى تحكموا بأنفسكم. كان ذلك يوم الغارة الاسرائيلية على حمام الشط في تونس. حدث في هذا اليوم ان ثلاثة سيّاح اسرائيليين ركبوا سيارة اجرة. كان السائق من اصحاب الحمية القومية فهاله حجم الجريمة الاسرائيلية، وهاله اكثر ان يركب في سيارته مواطنون اسرائيليون. فما كان منه الا ان قادهم عبر الشوارع الاكثر وعورة، ولم يوفر حفرة واحدة الا أوقع سيارته وركابه فيها ليشعرهم انه لم يستطب رفقتهم..."

كان الواعظ احد كبار روائيي مصر، والموعوظون صحافيون عرب يزورون القاهرة في عزّ مرحلة اعادة الاكتشاف العربي لمصر في اواسط الثمانينات، ففلب عليهم الحياء، وامتنعوا عن لفت المتكلم الى تفاهة كلامه. اليوم، ما عاد هناك مجال للحياء في هذا المجال. وصار ممكنا التكلم بدقة عن التجربة المصرية في "السلام البارد" لو لم يحل الفباء مكان الحياء.

منذ ان بدأ الكلام يشيع عن التطبيع ومقاومته، درج بعض العرب على التبجح بالتجربة المصرية للامتناع عن التفكير في حجم المشكلة التي ستكون مطروحة على العرب قاطبة في السنوات المقبلة.

واول ما يقال عن رفض الشعب المصري التطبيع، هو انه لم يمنع حصول التطبيع، وان يكن من جانب واحد. فالسياح الاسرائيليون تدفقوا على مصر ولم يجبهوا بجفاء، حتى ان محيط الاهرامات بقي لسنوات مليئا بحوانيت صغيرة لبيع التذكارات السياحية التي حملت اسماء على وزن "دكان داود"

او "دكان سليمان". وفي اسواق القاهرة القديمة كذلك، لم يكن يعترض طريق اولئك السياح الا الصيارفة وباعة التحف. صحيح ان ظاهرة السياحة الاسرائيلية الى مصر تكاد تنتفي اليوم غير ان ذلك يعود الى وضع امني طاول السياح الاسرائيليين بمقدار ما طاول السياح الاوروبيين، ما ادى الى كساد عام في هذا القطاع.

ما يقال عن محدودية الرفض الشعبي للتطبيع لا ينطبق طبعا على ما برز من مواقف في وسط المثقفين. فالرفض كان حقيقيا في هذا الوسط، وان لم يكن فاعلا كما يطيب للبعض ان يتصور. لكن الاهم ان هذا الرفض لا يمكن ان ينسحب على مواقف المثقفين في دول عربية اخرى بعد السلام، وذلك لأن الرفض المصري كان يتسلح بحجة اساسية هي استمرار الصراع العربي – الاسرائيلي على الجبهات الاخرى.

فمن البديهي ان هذه الحجة ستسقط حكما عندما ينتهي مسلسل التسويات الثنائية، ويبدأ التطبيع بقوة على جميع الجبهات.

يبقى الجانب الرسمي في "السلام البارد"، وآخر التعبير عنه "كان استقبال الرئيس الاسرائيلي عازر وايزمان في مصر". لا جدال في ان هذا الاستقبال كان يفتقد الى الحرارة المطلوبة اسرائيليا. الا ان ما ينم عنه لا يتصل بعقيدة مصرية ثابتة في التعامل مع الزوار الاسرائيليين. فعلى رغم انخفاض درجة الحماس المصري في التعامل مع اسرائيل بعد ان خلف الرئيس حسني مبارك الرئيس الراحل انور السادات، فقد حدث ان استقبلت مصر مسؤولين اسرائيليين بحفاوة اكبر. كما ان غياب الحرارة لا يتعلق بالضرورة بتضامن مصري مع سوريا او مع الفلسطينيين، وان يكن اضعاف موقع مصر كعراب مساعد للتسوية يثير حساسية في القاهرة.

فالاهم من كل ذلك ربما ان بلوغ التسوية مرحلة متقدمة من المغرب الاقصى الى مسقط، يحدث تطبيعا من نمط لم يكن احد يتوقعه، خصوصا الاسرائيليون. وهذا "التطبيع" يكمن في تفعيل مفاهيم استراتيجية تتصل بالجغرافيا، وهي مفاهيم كان عطّلها استمرار الصراع العربي – الاسرائيلي في حال اللاسلم واللاحرب. وابرز هذه المفاهيم ان اسرائيل دولة صغيرة مهما كبرت، ومصر دولة كبيرة مهما صغرت.

سمير قصير